الحسّ الأسريّ وأثره في شاعرية ابن درّاج

*فتحي "محمد رفيق" أبو مراد**

ملخص

تحاول الدراسة فهمَ شعر ابن درّاج، وتذوّقه في ظلّ ظروف عصيبة، أحاطت بالشاعر وبأسرته. تمثّلت في لهيب الفتنة الكبرى التي طوّحت بمدن الأندلس، فكان ابن درّاج وأسرته ضحية هذه الفتنة التي ألقت به وبأسرته بين أنياب الفقر والتشرّد؛ فانفجرت أحاسيسه العارمة حبًا لأبنائه وزوجته، وخوفًا عليهم. وتجلّى الحسّ الأسري لدى الأب وتضاعف، فراح يجسّده في شعره: صوراً وأخيلةً جذّابةً، رسمتْ شاعريةَ ابن درّاج، ووهبتها جماليتها الفنية وكينوناتها الدلالية.

الكلمات الدالة: الحسّ الأسري، الشاعرية، الفتنة، الرحيل، التراث، المدح.

المقدمــة

تحاول الدراسة استكناه الحسّ الأسريّ وأثره في شاعرية ابن درّاج القسطلي، كما تراءى في شعره. وقد تمحورت الدراسة في محاور عدّة؛ تناولت أسرة ابن درّاج الكبيرة، والفتنة التي اجتاحت الأندلس، وأثرها في الشاعر وأسرته، ثم مسؤوليات الأب تجاه أسرته، وموقفه البطولي من المحن التي ألمّت به وبأسرته، وما ترتّب على ذلك من أسفار وترحال عبر البحار والقفار، وما رافقه من أحاسيس ومشاعر متشحة بالغربة والحنين، ضجّت في حنايا نفسه ومنعرجاتها الخبيئة، فوقف أمام هذا الواقع المؤلم مشدوهاً مذهولاً، لا يكاد يصدق ما آلت إليه حاله وحال أسرته، فانكفأ على نفسه مستغرقاً في تأملاته، وقد أثقلته صور الماضي المشرق، فراح يجترّ ذكرياته، ويتفجّع عليها بأنغام تصدح بالحسرة والألم، لكنها لا تستسلم ولا تستكين، بل تحاول أن تبثّ الأمل في نفوس أبنائه وزوجته، وتعيد لهم البسمة والفرح من جديد.

المتأمل في ديوان ابن درّاج، يلحظ أنّ ثمة إشارات عدّة تؤكد أن الشاعر كان ذا أسرة كبيرة، ينوف عدد أفرادها عن عشرة أفراد، بين بنين وبنات. وهذا يضاعف مسؤوليات الأب فيما يتعلّق بالتربية والعناية، وتوفير المتطلبات المادية الكبيرة التي تكفل للأسرة حياة كريمة. وقد نَعِمَ ابن درّاج وأسرته، قبل الفتنة التي التهمت قرطبة خاصة والأندلس عامة، بحياة أثيرة، وأفياء ظليلة في كنف العامريين. غير أن الفتنة قلبت الحال، وغيّرت الأحوال؛ "فتراخت أيامه، وأغضى عنه حمامه، حتى أخرجته المحن، وسالت به الفتن" (الشنتريني، 1979)، وانتابه غول الفقر والتشرّد والضياع؛ فطوّحت به الأيام في البحار والقفار؛ فراح يصف حال أولاده الصغار، ويبدع في وصفهم، وينعتهم بصفات تفيض بالمعاني العاطفية الجيّاشة التي لا تفتأ تؤثّر في السامع، وتحرّض أحاسيسه، علّها تؤثر في سامع ما ممن يوجّه خطابه لهم من الممدوحين؛ وعلّ الله يُحدث أمراً، ويقلّب القلوب، فيرقّ حال أحدهم لأطفاله؛ فهم الأفراخ الزّغب حمر الحواصل لا ماء ولا شجر.

وكلما احتدّت أنياب الدهر عليه ازدادت شدة حساسيته تجاه أبنائه وبناته وزوجته، وازداد تعلّقه بهم؛ فجاشت أحاسيسه، وتوهّجت مشاعره خوفاً ورجاءً عليهم. فراح ينهلُ من هذا المعترك المستعر من المشاعر والأحاسيس، من المخاوف والآمال، من الرجاء واليأس: صوراً شعريةً وأخيلةً إيحائيةً تشكّل كينونات جمالية ودلالية تتضح بمزيج متوازن من الانفعالات الإيجابية والسلبية معاً، وتبوح بوحاً حاداً برؤية الشاعر الموزّعة بين الأمل والإحباط، بين اليسر والعسر، بين الحياة والموت. جسدها ابن درّاج كلها في قصائدَ وأبياتٍ تفيض بالمشاعر، والأحاسيس العارمة بالحسّ الأسري، حتى استحق بحق وصف شاعر الأسرة، أو شاعر الحسّ الأسري الأول. فالإحساس العارم بالأسرة ظاهرة مائزة انفرد بها ابن درّاج.

حول أسرة ابن درّاج القسطلي

ابن درّاج هو أحمد بن محمد بن درّاج القسطلي، (347-

* كلية الحصن الجامعية، جامعة البلقاء التطبيقية، الأردن. تاريخ استلام البحث 2015/2/3، وتاريخ قبوله 2015/5/24.

 © 2016 عمادة البحث العلمي وضمان الجودة/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

421هـ)، (958- 1030م)، وُصف ابن دراج بأنه "أمير شعراء الأندلس ومتنبي المغرب" (ابن درّاج، 1968). أشار الدكتور محمود علي مكّي، محقق ديوان ابن درّاج إلى أن الشاعر تزوّج في سنة (374هـ) على أقل تقدير، أي وهو في سنّ السابعة والعشرين (ابن درّاج، 1968). وأشارت الكتب التي ترجمت له، والدراسات التي ألقت بصيصاً من الضوء عليه، أنه "رُزق بعدد كبير من الأولاد" (سلامة، 1989). غير أن الدارسين اختلفوا في عدد أبنائه؛ فمنهم من "رأى أن زوجه أنجبت له ابنة واحدة" (ضيف، 1989). ومنهم من رأى أنهم بلغوا أكثر من عشرة أفراد بين بنين وبنات (سلامة، 1989). وأغلب الظن أن هذا الكلام ليس دقيقاً، فمن خلال مطالعتي ديوان ابن درّاج وجدت الكثير من الأبيات التي يُشير فيها إلى عدد أبنائه. فتارةً يقول: إنهم ثلاثةَ عشرَ فرداً، وتارةً يقول: إنهم فوق الستة، أو أنهم أحدَ عشرَ. أذكر من هذه الأبيات على سبيل المثال لا الحصر (ابن درّاج، 1968):

1. وحرّان أوفى ظمءَ تسع وأربع
بحيث تلاقى دافق البحر والوبل
2. وأسبل لي من ستره فوق ستة
أهيم بهم في الأرض مثل القطا الزغب
3. فلله من أعداد أنجم يوسف
تحملها منها أقل من العشر
4. ست تسرّاها الجلاء مغرّبا
وحدا بها حادي النجاء مشمرا
5. بسبع كسبع سمام السّموم
وأربعة كربوع العفاء

لعله يشير في البيت الأخير إلى أبنائه الأربعة وبناته السبع، ويشبههم بسمام السموم، وهو ضرب من الطير نحو طير السماني (ابن درّاج، 1968).

إنّ هذه الأبيات لا تشير إلى العدد الحقيقي لأبنائه، وإنما جاء بها الشاعر بوصفها إشارات لكثرة أبنائه في معرض الحديث عنهم وتصوير (عاطفة الأبوة)، ومسؤوليته تجاههم من جهة، "والظروف الاقتصادية والسياسية التي عرقلت حياتهم السعيدة وأجبرتهم إلى النجعة عن ديارهم من جهة ثانية" (القيسي، 1989). فلم يعد يراهم إلا كالنجوم الكثيرة التي يصعب حصرها. يقول (ابن درّاج، 1968):

وشعبت أفلاذ الفؤاد ولم أكد
فحذوت من حذو الثريا منظرا

المتأمل في ديوان ابن درّاج يلحظ أن البيت الشعري الذي قيّد فيه الشاعر عدد أفراد أسرته: ذكوراً وإناثاً، هو البيت الذي يقول فيه (ابن درّاج، 1968):

ولسبعة مع مثلهم أنا كلهم
في النائبات وليس كلهم أنا

وقد أشار إبراهيم الياسين في رسالته التي تحمل عنوان (شعر ابن درّاج القسطلي: دراسة وتحليل)- وأنا أتفق معه- إلى "أن ابن درّاج كان ربّ أسرة كبيرة، بلغ عددها أربعة عشر فردًا" (الياسين، 1992). ولعل التباين في عدد أفراد أسرته يُردّ إلى اختلاف الأزمنة التي قيلت فيها تلك الأشعار بين عقد وآخر من عمره، وتبعاً لذلك يكون طبيعياً أن يظهر ازدياد في عدد أبنائه وبناته بين مرحلة من عمره وأخرى؛ فهم يزدادون كلما امتدّ به العمر.

الفتنة[1] وأثرها في ابن درّاج وأسرته

لا يمكن قراءة شعر ابن درّاج بمعزلٍ عن الظروف السياسية والاقتصادية التي أحاطت به. فلا بدّ من النظر في هذه الظروف، واستعراض حياته، وحياة أسرته في ظل ظروف الفتنة، للكشف عما لاقوه من شدّة وفقر في تلك الأيام، حيث أثّرت الفتنة فيه وفي أسرته، كما أثرت في المجتمع الأندلسي بأسره. وقد سجّل ذلك ابن درّاج نفسه من خلال حديثه عن أسرته التي تعدّ شريحة اجتماعية أصابها ما أصاب الشعب الأندلسي في تلك الفترة. يقول ابن بسام في الذخيرة واصفاً أحوال ابن درّاج: "كان من شعراء ابن أبي عامر إلا أنه تراخت أيامه وأغضى عنه حمامه حتى أخرجته المحن، وسالت به تلك الفتن الكائنة في صدر المائة الخامسة من الهجرة" (الشنتريني، 1979).

لعل سقوط قرطبة كان من أهم هذه الفتن التي اكتوى بلهيب نارها ابن درّاج. لذا نراه يصوّر حدث هذه الفتنة أجمل تصوير؛ ويتحدّث عنها "متصوراً أنها كانت (عهد جاهلية) تستقيم فيه الأزلام، وأن المهجات كانت هي الجزور المجزأ لضرب القداح، وأن النفوس كانت هي القربان المدمّى على الأنصاب، ولكنه لا يحمّل مسؤوليتها إنساناً بعينه، لأنه حام حول جميع الذين أضرموا نارها، أو حاولوا الإفادة منها" (عباس، 1962)، يقول ابن درّاج (ابن درّاج، 1968):

فسَكرتُ والأيام تسلبُ جدتي
والدهرُ ينسجُ لي ثياب سلابي
سُكرين من خَمْرٍ كأن خُمارها
فقدُ الشبابِ وفرقةُ الأحبابِ
لمدى تناهى في الغواية فانتهى
فينا إلى أمدٍ له وكتاب
وهوىً تقاصر بالمنى فأطال بي
همّاً إلى قلبي سرى فسرى بي

في جاهلية فتنةٍ عُبدت بها
دون الإله مضلة الأرباب
تُستقسم الأزلام في مهجاتنا
وتسيل أنفسنا على الأنصاب
غِيراً من الأيام أصبح ماؤها
غوراً وأُعقب صفوها بعقاب
وبوارقاً للغيّ أضرم نورها
ناراً وصاب غمامها بالصاب"

هكذا، لم يقف ابن درّاج موقفاً سلبياً إزاء اضطراب الأحوال في مدينته بشكل خاص، والأندلس بشكل عام، بل ظلّ يحذر الأندلسيين من المصير المفزع الذي ينتظرهم، شأنه في ذلك شأن غيره من شعراء الأندلس، الذين أخذوا يستصرخون الملوك والحكام لنجدة البلاد، ويستنهضون عزائمهم لجهاد الأعداء، لكن صرخاتهم ذهبت أدراج الرياح؛ فقد اتسع الخرق، وعمت الفتن وسقطت قرطبة، ثم توالى سقوط المدن الأندلسية واحدة تلو الأخرى بصورة مؤلمة فاجعة.

وقد أذكت هذه المحنة لوعة الشعراء، واستثارت قرائحهم، فبكى شعراء قرطبة من أمثال: شاعرنا ابن درّاج، وابن حزم[2]، وابن شهيد[3]، وابن زيدون[4] مدينتهم الحزينة، بكوها بكاءً حاراً وتفجّعوا على ضياعها تفجّعاً أليماً؛ فوصفوا حال المدينة بعد خرابها وهلاك أهلها، وتشردهم في أصقاع الأرض. فقد كانت قرطبة قطعة من الفردوس، فأصبحت قطعة من جحيم، لكثرة ما لقيت من دمار وتخريب وتقتيل، كما وصفها أحد شعراء قرطبة المجهولين بقوله (شيخة، 1994):

- كانت على الغاية من حسنها
وعيشها المستعذب اللين
- فانعكس الأمر فما إنْ ترى
بها سروراً بين إثنين

المتأمل في شعر هذه المرحلة من تاريخ قرطبة، يلحظ مجموعة من السمات الأساسية. لعل أظهرها وأكثرها دوراناً على ألسنة الشعراء ما اتصل باجترار ذكريات الماضي السعيد في أحضان قرطبة الدفيئة، وتصوير حاضرها المتداعي، وما أصابها من خراب وتدمير وضياع. فأبرز الشعراء ثنائية الماضي والحاضر، وتلك المفارقة الساخرة بينهما، وفي ظلّ هذه المفارقة نَمتْ قصائد الشعراء كاشفة ما يمور في حناياهم من مشاعر وعواطف ورؤى تجاه مدينتهم بوجهيها : القديم المشرق، والجديد المظلم. وتغيّر حالهم من سعة العيش ونعيمه، إلى ضيق العيش وجحيمه.

فها هو ذا ابن درّاج يبوح بهذا ويجأر به؛ فبعد سعة العيش والاستقرار والكفاية النفسية والاقتصادية التي نَعِمَ بها في ظلّ المنصور بن أبي عامر والعامريين عامة، وبعد شعوره بالأمن على نفسه وعائلته (الشوابكة، 1989)، اجتاحت قرطبة هذه الفتنة الشنعاء التي انتشر تأثيرها في سائر الأندلس، مما أدى إلى تردّي الأوضاع الاقتصادية، وكثرة الطرد والنفي والجلاء والتشرّد (القيسي، 1989)، وقد عصفت هذه الأحداث بابن درّاج وعائلته؛ فشردتهم عن وطنهم، ونقلتهم من نعيم الاستقرار والوطن والأمن إلى التنائف والبحار والصحاري والترحال. حتى حينما طلب المنصور بن أبي عامر من ابن درّاج أن يعارض أبا نواس في قصيدته (أجارة بيتَينا أبوك غيور)، نسجَ ابن دراج قصيدةً بدا فيها يعاني، حقيقةً لا صناعةً، الأهوالَ والمتاعب التي تجشمها خلال رحلته عبر الصحراء، كأني بالشاعر لا يستطيع أبدًا أن ينفك من حقيقة واقعه المعيش؛ لذا نراه راح يصوّر فزعه وقلقه على زوجته وأولاده، كأنه يصف واقعاً معيشاً، ولا يحاكي واقعاً شعرياً آخرَ، يقول ابن درّاج في هذه القصيدة (ابن درّاج، 1968):

أسلط حر الهاجرات إذا سطا
على حُر وجهي والأصيل هجير
وأستنشق النكباء وهي بوارح
وأستوطئ الرمضاء وهي تفور
وللموت في عين الجبان تلوّن
وللذعر في سمع الجريء صفير
لبان لها أني من الضيم جازع
وأني على مض الخطوب صبور
أمير على غول التنائف ما له
إذا ريع إلا المشرفي وزير
ولو بصرت بي والسرى جل عزمتي
وجرسي لجنان الفلاة سمير
وأعتسف المومأة في غسق الدجى
وللأُسد في غيل الغياض زئير

يتحدّث ابن بسام عن شاعرنا ومأساته قائلاً: "كان ممن طوّحت به تلك الفتنة الشنعاء واضطرته إلى النجعة" (الشنتريني، 1979)، فابن درّاج إذاً، كان على مدرج سيل الفتنة، "فأوثقته حبالها وعركته عرك الرحى بثِفالِها" (الشنتريني، 1979). وذاق العلقم بعد الشهد، فضجر الشاعر من حاله، ووصف ما حلّ به وبعائلته، من جراء الفتنة التي كانت سبباً في شعورهم بالغربة والتشرد. فها هو ذا الشاعر يصف حاله بقوله (ابن درّاج، 1968):

غريب وكم غرّبت راحتا
ه، في الأرض من وجه بكر بتول
شريد السيوف وفل الحتوف
يكيد بأفلاذ قلب مهول

تهاوت بهم مصعقات الرواعـ
ـد في مدجنات الضحى والأصيل

ويقول في قصيدة أخرى:
حيث استكانت للعفاء منازلي
وهوت بأفلاذ الفؤاد نجائبي

ويقول في أخرى:
وأفلاذ الفؤاد أمضّ قرحا
إذا رمت العيون بما تساء
فما كسرورهم في الدهر حزن
ولا كشفائهم في الصدر داء
نقائذ فتنة وخلوف ذلّ
ألذّ من البقاء به الفناء
فإن أقوت مغاني العز منهم
فكم عمرت بهم بيد خلاء
وإن ضاقت بهم أرض فأرض
فما بكت لمثلهم السماء
وإن نسي الردى منهم ذماء
فأعذر زاهق عنه الذماء
فكم تركوا معاهد موحشات
عفت حتى عفا فيها العفاء
فأظلم بعدنا الإصباح فيها
وكم دهر أضاء بها المساء
وجد بها البلى فحكت وجوها
نأت عنها فجد بها البلاء
وهون هوانها في كل عين
جدير أن يعز له العزاء

فبعد سعة العيش والوفر أرسل الدهر إليهم سلطان الفقر؛ فتبدّلت حالهم من الحياة الرغدة والعيشة الراضية إلى جلف الحياة وجفائها، يقول (ابن درّاج، 1968):

تجزّأ من جنّتي مأرب
بخمطٍ وأثلٍ وسدرٍ قليل

فأصابهم ما أصاب أهل سدّ مأرب الذين تبدّلت معيشتهم الطيبة، وتحوّلت بساتينهم إلى ثمر الأراك (الخمط) (دعدور، 1994). لعل هذه الصور التي أتى بها الشاعر تنظر بوضوح إلى قصة أهل سدّ مأرب في القرآن الكريم (سورة سبأ، آية: 15 ،16)، وتراخيهم في مراتب العذاب والشدة والفقر، بعد التذاذهم من أفاويق النعيم والجنان. فالشاعر على الرغم مما يعتريه من حسرة وألم، وإحساس فاجع بحدّة المفارقة والتحوّل من حالٍ إلى حالٍ، إلا أنه لم يخسر وعيه، بل ظلّ قادراً على استدعاء الرموز التراثية، واستلهام المواقف المختلفة، والكشف عن مخابئها، لا ليربط المواقف بعضها ببعض حسب، وإنما ليكْسَبَ لنفسه بلورة تلك الرموز في تجربته الشعرية المعيشة. فالإحساس العميق بالتحوّل والتبدّل كان قوة مركزية فاعلة في شاعرية ابن درّاج، وتوهّج حسّه الأسري. لذا لا غرو أن نرى الشاعر يكثّف رؤيته في التحوّل والتغيّر، وانقلاب الحال عبر مجموعة من التقابلات والثنائيات الضدية، كما نلحظ في الأبيات السابقة، مثلاً.

أحدثت الفتنة شرخاً كبيراً في حياة الشاعر، وجعلت حياته نهباً للفقر والفاقة؛ حتى أصبح بالكاد يعيل أسرته، ولم يكن أمامه من سبيل ينقذه وأسرته من العَيْلَة إلا الضرب في الآفاق والتجوّال في البلاد طلباً للرزق، كما يظهر في قوله (ابن درّاج، 1968):

وأعطانُهُ مألفٌ للضيوف
وموطن ذي عَيْلَةٍ أو مُعيل

إذاً، الفقر الشديد، وكثرة العيال ضاعفا من حاجته للمال. "فاستقرى الملوك أجمعين، ما بين الجزيرة الخضراء فسرقسطة، من الثغر الأعلى يهزّ كلاً بمديحه، ويستعينهم على نكبته، وليس منهم من يصغي له" (الشنتريني، 1979). حيث أمضى ابن درّاج ثماني سنوات (400–408) شريداً ضائعاً يكتوي بنيران الغربة عن الأهل والوطن والعيال إثر الفتنة الظالمة، وكانت هذه السنوات من أصعب سني حياته (ابن درّاج، 1968). إذ تركته شريداً ضائعاً، (يستصرخ الآخرين) (ابن درّاج، 1968)، ويرحل إليهم ويمدحهم، حيث اتخذ من المدح مصدر رزق له ولعياله؛ فكثر ممدوحوه واختلفت مراتبهم، وكان منهم الوزير، والأمير، والكاتب، والقاضي. ولعل هذا يدلّ على أنه كان قادراً على "إقامة علاقات اجتماعية مع كبار رجالات الدولة" (القيرواني، 1981)، فقد تقرّب إليهم وشكا آلامه ناهيك عن أحاديثه المستفيضة عن أسرته، من مثل رحيله مع أسرته إلى سليمان بن الحكم أمير المؤمنين علّ مقلّب القلوب يقلّب قلبه للأطفال المشردين الذين أتوه مضطرين راغبين في نظرة إلى ميسرة" (الشنتريني، 1979)، بعد أن أكلوا اليابس وامتصوا الثمار، كما يقول (ابن درّاج، 1968):

يخفي التعفف مثوانا فليس لذي
أنس إلى وحشنا سمع ولا بصر
ولا يد غير أيدي الظلم تعرفنا
ولا بغير دموع العين ننتصر
نرعى الهشيم ونمتص الثمار وقد
أظل أنهارنا الأغصان والثمر
والأرض مضجع أبشار ممهدة
لها الأرائك في الأكنان والسرر

وتحت أجنحة الإشفاق حانية

حمر الحواصل لا ماء ولا شجر

يركّز الشاعر في هذه الصورة الحركية على الجمل الفعلية، ويربطها ربطاً واضحاً بمفارقة التحوّل والتبدّل، أو بثنائية زمانية تتردد أصداؤها بين الحاضر والماضي، لينفذ من خلالها إلى فاعلية التحوّل المدمر، حيث أصبح الشاعر وأبناؤه، بعد رغد العيش، يرعون الهشيم، ويعانون الوحشة، والظلم، والفقر؛ إذْ لا أنيس، ولا شفيق يحنو على صغارٍ حمر الحواصل لا ماء ولا شجر. فيتداعى حالهم في وضع جديد يشبه وضع الأنعام، أو الماشية. تأملْ قوله: (نرعى)، فهذا فعل يخصّ الماشية، وكأن الشاعر ما عاد يستشعر معنى الإنسانية في نفسه أو في أولاده، أو أنه ما عاد يرى فرقاً بين الحياة الإنسانية التي يعيشها، وحياة الماشية التي ترعى الأعشاب. وتأملْ ماذا يرعى؟ يرعى الهشيم، العشب اليابس في أحسن حال ويمتصّ الثمار. فالدوال هنا تبدو مثقلة بإيحاءات الخراب والفقر والتحوّل المأساوي. لذا عمد الشاعر إلى التركيز على الدوال الفعلية والإخبار بها؛ فالإخبار بالفعل "يفيد وراء أصل الثبوت، كون الثابت في التجدد، والاسم لا يقتضي ذلك، ويشبه أن يكون في صحة الإخبار به أعمّ، وإن كان الفعل فيه أكمل وأتمّ؛ لأن الإخبار بالفعل مقتصر على الزمانيات أو ما يقدّر فيه ذلك، والإخبار بالاسم لا يقتضي ذلك" (الرازي، 1985).

ويمكن أن نقرأ هذه الجملة (نرعى الهشيم) على أنها جملة استفهامية، بتقدير حرف استفهام في مستهلها، أي: أنرعى الهشيم؟ على غرار قوله تعالى: (يا أيها النبي لم تحرّم ما أحلّ الله لك، تبتغي مرضات أزواجك) (سورة التحريم، آية: 1)، أي أتبتغي مرضات أزواجك. غير أن الفارق هنا أن الشاعر قصد الاستفهام الاستنكاري، مستنكراً ما آلت إليه حاله وحال أبنائه. فالتنغيم الصوتي يغني، أحياناً، عن أداة الاستفهام (عيد، د– ت). حيث تُحذف أداة الاستفهام، ويظل الاستفهام مفهوماً في كيفية القراءة، والتحكّم بالنغمة الصوتية التي تبرز نغمة السؤال، أو المعاني الأخرى التي يخرج إليها، في العبارة. فالقراءة "بالنغمة المستوية تكون في الجملة الخبرية، وتكون الصاعدة في الاستفهام والأمر، وتكون الهابطة في الندبة والتفجّع" (عمايرة، 1984). وهذا يعني أن هذا الاستعمال اللغوي قد يهدر أثر الاستفهام بالاعتماد على النغمة الصوتية التي تنتقل بها الجملة من خبرية إلى استفهامية إلى تعجبية إلى إنكارية. وكل هذا يضاعف من إيحاءات الجملة (نرعى الهشيم)، واحتمالاتها الدلالية.

وعلى الرغم من رياح النكبة التي تقاذفت ابن درّاج، وألقت به في سرقسطة وسواها، ورغم قسوة هذه المرحلة وعذاباتها، وانشغال الشاعر بالبحث عن القوت والأمان، إلاّ أنه لم ينسَ مدينته قرطبة، رغم ما أصابها وأصابه من عذابات السقوط والتشرّد، فقد ظل حنينه الدافق جيّاشاً لربوعها ومعانقة ترابها، فقال مخاطباً الذاهب إليها (ابن درّاج، 1968):

واجنح لقرطبة فعانق تُربها

عني بمثل جوانحي وترائبي

وتبيت تنشر في الأباطح والربى

زهرا يخبر عنك أنك كاتبي

مسؤولية الأسرة

المتأمل في ديوان ابن درّاج يرى أنه لا يفارق الحديث عن أبنائه، حيث استغرق حديثه عنهم جانباً عظيماً منه، وهو يصوّر عاطفة الأبوة نحوهم. وقد أشار غير دارس لهذه الصفة الرائعة التي ميزت شخصيته. يقول إحسان عباس: "كان جاداً في أكثر شؤونه، محباً لأطفاله، قيماً بالمسؤولية العائلية (عباس، 1962). فقد تعلق تعلقاً شديداً بزوجته وأولاده، ناهيك عن شعوره بالحنان والعطف تجاههم، فاستحق بذلك أن يُعدّ "شاعر الأسرة أو شاعر الحسّ الأسري" (هيكل، 1980). فالإحساس العارم بالأسرة ظاهرة متميزة انفرد بها ابن درّاج، ولا يشاركه فيها شاعر عربي آخر. ولعل من أسباب ذلك تلك "الظروف الخاصة التي أحاطت به، ومن شدة حساسيته إلى قسوة الحياة أيام الفتنة التي نهكت قواه وجعلته غريباً ذليلاً" (ابن الخطيب، 1973)، يصف ما حلّ بأسرته التي أهلكتها الملمات والشدائد القاسية (الياسين، 1992). ويتقن وصف حال أولاده الصغار، وينعتهم بصفات تفيض بالمعاني العاطفية الجيّاشة التي لا تفتأ تؤثّر في السامع، وتحرّض أحاسيسه، علّها تؤثر في سامع ما ممن يوجّه خطابه لهم؛ فيحصلون على ثمر فاكهة. فهم الأفراخ الزّغب (ابن درّاج، 1968)، حمر الحواصل لا ماء ولا شجر. وكأن الشاعر ينظر إلى صورة أولاد الحطيئة، ويبني صورته بوحيّ منها، فيصوّر حال أبنائه التي أضحت تشبه حال أبناء الحطيئة (ابن درّاج، 1968).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ابن درّاج أكثر من حديثه عن المعاني الذاتية التي تبعث الألم والحزن في نفسه نتيجة لبعده عن عياله. ويظهر ذلك من خلال النعوت التي نعت بها نفسه من مثل "الشريد، والغريب" (ابن درّاج، 1968). وهما صيغتان للمبالغة من الصفة المشبهة للدلالة على أن هاتين الصفتين، وهما التشرّد والغربة، بلغتا عند صاحبهما حدّاً هو كالطبيعة لدى هذا الشخص.

إنّ مرحلة الحنين إلى الماضي والاهتمام بالأسرة وقعت بين مرحلتين: مرحلة الأمن والاستقرار قبل الفتنة، ومرحلة التشرّد

والضياع بعد الفتنة[5]. حيث اتجه الشاعر إلى الشكوى من الزمان وفساد الأحوال، يقول (ابن درّاج، 1968):

فيا عجبا لصروف الزمان
شهودا لنا وهي فينا خصوم!
وكيف قضى حكم هذا القضاء
علي لدهري وهو الظلوم
فنحن ديون النوى كل يوم
على حكمه يقتضينا الغريم

فتخلّى الصديق عن صديقه، وتفككت العلاقات الاجتماعية، وانهارت الصلات والوشائج بين الناس، فوجد ابن درّاج نفسه وحيداً أمام مأساته، "وبلغ أحياناً مرحلة اليأس من الحياة، وهو يرى الانقلاب الذي أصاب عائلته في الصميم" (الشوابكة، 1989)، بعد أن أصبح "منبتّ الإخاء" (ابن درّاج، 1968):

سلام على الإخوان تسليم آيس
وسقيا لدهر كان لي فيه إخوان

لكن الشاعر طلب من أسرته الصبر، لعل أحداً يجيرهم ويساعدهم، أو يأتيهم الموت عجلان؛ فيريحهم من الهيمان في الأرض، يقول (ابن درّاج، 1968):

أقول لهم صبرا لكم أو عليكم
عسى العيش محمود أو الموت عجلان
ولا قنط واليسر للعسر غالب
وفي العرش ربّ بالخلائق رحمان
ولا يأس من روح وفي الله مطمع
ولا بعد من خير وفي الأرض خيران
ستنسون أهوال العذاب ومالكا
إذا ضمكم في جنة الفوز رضوان
متى تلحظوا قصر المرية تظفروا
ببحر حصى يمناه درّ ومرجان
وتستبدلوا من موج بحر شجاكم
ببحر لكم منه لجين وعقيان

تعدّ هذه الصور الشعرية مزيجاً متوازناً من الانفعالات الإيجابية والسلبية معاً، وبوحاً حاداً برؤية الشاعر الموزّعة بين الأمل والإحباط، بين اليسر والعسر، بين الحياة والموت. وكأن الشاعر لا يستطيع أن يرجّح كفة على أختها، لذا نجد هذا التوازن العجيب من الانفعالات المتضادة الممتدة بين الموت والحياة؛ بين الصبر الجميل المفضي إلى الراحة والسكون على الأرض، والموت السريع المفضي إلى الراحة والسكون تحت الأرض؛ فكلاهما راحة وسكون. فعلى الرغم من عمق المرارة التي يبوح بها قوله: (عسى العيش محمود أو الموت عجلان)، إلا أن الشاعر "لم يهدف من ورائه الاستثارة والصّخب الذّاتيين نحو الاقتداء أو تهوين الإرادة؛ وإنما اتجه نحو الخلاص والتضحية في المصابرة على الطريقة الصوفية، ولكن هذا في تمني الموت من أجل التحرر الذي لا يبرح دائرة الاستشهاد النبيل" (خريوش، 1999)، والتخلّص من الفقر والتشرّد ومأساة الفتن، هذا الفقر الذي بات لا يختلف في نتيجته عن الموت الحقيقي إلا شكلاً، ويلاقيه مضموناً. فالموت الذي قصده الشاعر هنا، إنما هو شكل من أشكال الاستشهاد النبيل، ينتهي بدخول الجنة: (ستنسون أهوال العذاب ومالكا إذا ضمكم في جنة الفوز رضوان). من هنا نرى هذا المزيج المتوازن من الانفعالات الموزّعة بين الأمل والإحباط، أو الحياة والموت.

موقف ابن درّاج البطولي

بعد أن نظر الشاعر للحياة نظرة حائر مشرّد ضائع، قرر أن يقف موقف البطل الذي يضحي بنفسه في سبيل أبنائه، ليعوضّهم عن كل ما يعانون من فقدان الأمن، وقسوة البشر، وبُعدٍ عن الوطن (ابن درّاج، 1968):

وإن ضاق رحب الأرض عن منتواهم
فرحب لهم ما بين سحري إلى نحري
وإن تقسُ أكباد كرام عليهم
فواكبدي ممن تذوب له صخري
وإن تبرم الأيسار في أزماتهم
فأحبب بأيسار قمرت لهم يسري

تتجلّى صورته البطولية، إذاً، في شجاعته، وفي عدم استسلامه لليأس، ورغبته في ديمومة المسيرة الإنسانية التي فرضت عليه أن يتصرّف وفق السلوك الاجتماعي المطلوب، باعتباره ربّ الأسرة، وتقع على عاتقه المسؤولية؛ فقد استجاب لواقعه، وصمم على تجاوز مصاعب الزمن، وكان ذلك نابعاً من إيمانه بالقضاء والقدر الذي يحتّم عليه اقتحام المصاعب، يقول (ابن درّاج، 1968):

ولا كبني سبيل شردتهم
عن الأوطان قاضية القضاء

ويقول في موضع آخر:

لكن سهام من الأقدار ما برحت
على مراصد ذاك الماء ترميني

ويقول في آخر:

هو القدر المحتوم من ذا يردّه
وسلطان رب العرش من ذا يغالبه؟

إذاً، يستشعر ابن دراج، في موقفه من القضاء والقدر المكتوب عليه، المسؤوليةَ تجاه أسرته؛ ولم يستسلم لفاعلية

الحظّ والحتمية التي لا تترك مبرراً للسعي. لم تمنعه قناعته بما هو مكتوب له من السعي والأخذ بالأسباب، كما أمر الله عزّ وجلّ؛ والشاعر يعيش (حالة وعي)، إنه شاعر مأزوم، ويتمذهب بمذهب خاص به في البلاغة، ويرى رؤية إيمانية تؤمن بالقضاء والقدر. والأدب الأندلسي بشكل عام "كان يتنفّس في جوّ مشبع بالثقافة الدينية" (عباس، 1978) التي أُشبع بها ابن درّاج، وآمن أن ما يصيب الإنسان لا ينفك عن قدرٍ قدّره الله عليه، لذا كان ابن درّاج يرى نفسه متصلاً بـ (الحوط الإلهي)، وأن الأزمة مهما اشتدت، فلابدّ أن تنفرج، ناظراً إلى قوله تعالى: "إنّ مع العسر يسراً" (سورة الشرح، آية: 6)؛ لقد كانت حياته تراوح بين العسر واليسر، لذا فلا غرو أن نراه موزّعاً بين الإحباط والاستنهاض؛ وتمثّل العسر في سلسلة النكسات المريعة التي مُنيت بها حياة الشاعر وأسرته، وسائر العلاقات الإنسانية من حوله. أما اليسر؛ فتمثّل في حسّه الإيماني الذي ظلّ يذكي طموحاته ودوافعه لتغيير واقعه المعيش، كما في قوليه مثلاً (ابن درّاج، 1968):

وما انفرجت مبهمات الخطوب

بمثل اشتداد الأمور الشداد

ما أطبق الهم إلا ريثما انفرجا

ولا دجا الخطب إلا وشك ما انبلجا

لذا، فقد شرع برحلات تترى في أرجاء الأرض، وراح يتنقّل من مكان لآخر، ومن أمير إلى قاضٍ إلى وزير سعياً وراء صحبة خلٍّ تحميه وتستره، وتقدم له ولعياله القوت، وتلبّي احتياجاتهم. انظر إلى قوله: "ما وجدت أحسن بدءاً ولا أحمد عوداً مما أذن الله فيه لعباده الذين أعمرهم أرضه وسخّر لهم بَرّه وبحره، أن يمشوا في مناكبها ويأكلوا من رزقه" (الشنتريني، 1979).

وفي محاولة منه كي تنتصر إرادته المسؤولة، واستجابةً منه لواقعه المرير الذي يعكس مفهوم وفائه لأبنائه، وأنه قادر على استعادة وعيه وتضحيته في سبيل منع أسرته من الضياع؛ نراه قد حوّل نفسه إلى (رحّالة) يواجه الصعاب و(المطلق كالغول مثلاً) بإرادةٍ وعزمٍ وتحدٍ، أملاً في الحصول على رزق عياله "الذين تركهم للدهر يقلّبهم كيفما يشاء" (الياسين، 1992). يقول (ابن درّاج، 1968):

1. ولولاهم لم أُبدِ صفحة معدم

ولم أسمع الأعداء دعوة مضطرّ

2. في كل يوم منتوى متباعد

يرمي حشاشة شملنا المتقارب

ولكم وصلتُ تنائفا بتنائف

حتى وصلت مشارقا بمغارب

ولأشفين بها سقام تغربي

ولآسون بها جراح مصائبي

3. ليالي أمسي صدى قفرة

أجول الفلا بين غول وهامه

يحاول الشاعر أن يتفاعل مع قضيته، على أنها قضية ليست خارجة عن نطاق الإنسان. وفي مجريات هذا الإحساس، فقد جاءت محاولته الظهور بشخصية المغامر/ البطل الذي يرتحل لأجل أسرته، وليس من أجل اهتماماته الخاصة، أو ليكوّن لنفسه مركزَ انتباهٍ اجتماعيًا، أو عظمة بين يدي حاكم أو أمير. فالفكرة المسيطرة عليه التي تلتهم صاحبها هي حبه لأبنائه؛ فهو لم يكره الحياة، وإنما يصرّ على البقاء، على الرغم مما ابتُلِي به لأجلهم، فأخذ يعارك الحياة ويرتحل برّاً وبحراً من أجل حياة أكثر أمناً وعدالة ورفاهية. لقد حوّل اليأس إلى مجابهة، والضعف إلى قوة إرادة، والقناعة إلى روح مقاومة، يقول مخاطباً زوجته (ابن درّاج، 1968):

لا تخدعي بدموع عينك في الورى

قلبا يعز عليه أن تتذللي

وتجملي لشجا النوى لا تمكني

أيدي الصبابة من عنان تجملي

لا تخذلي بالعجز عزمي بعدما

شافهت أعجاز النجوم الأفل

فليسعدن الحزم إن لم تسعدي

وليفعلن الجد إن لم تفعلي

ولأعسفن الليل غير مشيع

ولأركبن الهول غير مذلل

ولأسطون على الزمان بعزمتي

ولأنحين على الخطوب بكلكلي

ولأرمين مقاتل النوب التي

ولعت مع المتخلفين بمقتلي

هكذا، نراه قد اندفع يطمئن أولادَه وزوجته ليستعيدوا ذاتهم، ويُنبتُ فيهم روحَ التطلع لاختراق جحافل اليأس بالصبر، فليس أمامهم سوى الاعتصام به؛ فهو السلاح الفعّال للقضاء على المصيبة: "أقول لهم صبراً لكم أو عليكم" (ابن درّاج، 1968). وما الصبر في واقعه إلا استجابة لحياته وواقعه، حيث حددت قسوة الأحداث من حوله الصورة التي يمكن أن يكون عليها الأب القائد المسؤول عن أسرته. وكأن الشاعر بحث مع أسرته عن السعادة، فما وجدوا إلاّ الشقاء، فوجب عليهم أن يجربوه ويصبروا عليه ليعرفوا معنى السعادة. غير أن الأب/ الشاعر راح يطمئن أولادَه وزوجته، ويبثّ الثقة والتأكيد في نفوسهم؛ لذا نراه يكثّف من استخدامه لأسلوب القسم والتأكيد في هذه الأبيات.

وهذا الضرب من استعمال القسم والتأكيد، يحمل شعوراً خاصاً متدفقاً، يختصّ بالذات على الخصوص، وعلى الأصل الذي هو (الأب/ البطل)، ومن هنا كان هذا الاختصاص في القصر على الذات، تأكيداً على إحساسه العميق بالمصاب من جهة، وقدرته على التحدّي والمواجهة من جهة أخرى. فالقسم هنا يؤكد المعنى في الجملة الأصل التي هي موضع التركيز والاهتمام؛ لإبراز ما فيها من معنى، "فما يسميه النحاة جملة قسم، هو في حقيقة أمره عنصر تحويل يفيد التوكيد، بل يفيد درجة عالية من درجات التوكيد، ولا يكون إلا لتوكيد حقيقة يحتاج السامع إدراكها فيؤكدها المتكلم" (عمايرة، 1984)، ذلك "أن العلم بمواقع المعاني في النفس، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق" (الجرجاني، 1969). وهذا التأكيد على حقيقة قدرته على التحدّي والمواجهة، هو ما تحتاجه زوجته وأبناؤه لتحفيز إحساسهم بالأمل والصبر.

ويستمر الشاعر في بسط أبعاد قضيته من منظورات متعددة، تأمل قوله (ابن درّاج، 1968):

فهل بُلّغتْ عن ركاب أجرت

بأن قد سعدن بما قد شقينا

فهذا الإحساس نابع من إيمانه العميق الذي أرشده إلى غايته، ودفعه إليها عسى قضيتهم التي قد تكون قضاءً وقدراً تُحلّ بضربة من ضربات القدر، فانكبوا يشترون المصائب بالغلاء، ويرحبون بها، لأنها لن تتفرج إلا بعد أن تشتدّ عليهم المصائب، يقول (ابن درّاج، 1968):

يبيعون الرغائب بيع بخس

ويشرون المصائب بالغلاء

ويقول:

وما انفرجت مبهمات الخطوب

بمثل اشتداد الأمور الشداد

فعلى الرغم من ضيق الحياة وشدتها، فقد كان الشاعر يدرك أن كل ضيق سيؤول إلى فرج، يقول (ابن درّاج، 1968):

ما أطبق الهم إلا ريثما انفرجا

ولا دجا الخطب إلا وشك ما انبلجا

فهذا الأب صاحب الروح العائلي المميز محبٌّ لأطفاله، قيّمٌ بالمسؤولية العائلية، يضطلع بدوره في تربية هؤلاء الناشئة (أطفاله)، ويقوم بدور المعلم الذي يقدم لهم النصح والإرشاد، فيكون بذلك أباً نافعاً لأسرته، وقدوة لأبنائه. وقد بدأ من الظروف التي أحاطت بهم دون تجاوز للواقع الإنساني الذي عاشوه. فراح يعلّمهم معنى التضحية، والإيمان والتوكّل، وترك التواكل، ويبسط لهم قيمةَ القيم العربية؛ كالجود وإجارة الملهوف، وغيرها. هذه القيم التي تحفظ حياة الناس في أوضاع العوز، كما حدث معهم. لذا كان الشاعر في معرض مدحه يركّز على هذه القيم والمثاليات، كأنها دعوة، أو رجاء وأمل لاستبدال واقعه المعيش الذي أضحى يفتقد هذه الأخلاقيات والقيم، مما أدى في النهاية إلى هذه المأساة التي عصفت بحياته، وحياة أبنائه في مهاوي الفقر والتشرّد، وهوت به وبهم إلى أعماق الذات الضائعة، حيث لا أنيس ولا مجير (ابن درّاج، 1968):

ومن يسمع بأن نجوم ليل

هوت مع بدرها فهم أولاء

وقد علّم الشاعر أبناءَه مواصلة السعي من أجل الرزق؛ فالرزق ثمرة سعي، "وليس كما ذهب إليه الحتميون بأن الرزق حظّ ونصيب" (اليازجي، 1992)؛ فالسعي يكسب مع المال الكرامة وعزة النفس، ويُبعد الإنسان عن الذلّ. لذا فهو يتحمل مشاق السفر ليعيش غير مذلل (ابن درّاج، 1968):

ولأعسفن الليل غير مشيع

ولأركبن الهول غير مذلل

السفر والترحال

أشرنا سابقاً، إلى أنّ إيمان ابن درّاج بالحياة والقدر، قد دفعه وأبناءه إلى الرحيل. فهو لا يرضى بالتواكل والكسل، ولا يهاب الموت أو يخشاه. وقد صوّر موقفه من القضاء والقدر من خلال الرجاء والأمل؛ فأمله لا يخيب، لأنه يرى نفسه (في توفيق الله)... متصلاً بـ (الحوط الإلهي)، كما أشرنا سابقاً. ويعكس هذا الموقف من خلال غايات الأسى وانجلائها، وغايات الدجى وانتهائها (ابن درّاج، 1968):

فلعل غايات الدجى أن تنتهي

وعسى لغايات الأسى أن تنجلي

لقد كان حلمُه بالبيت السعيد، والحياة المستقرة الهادئة المحركَ الذي أيقظه، وشدّ عزيمته على التجوال وطرق الأبواب، وطلب المساعدة من الآخرين، على الرغم من تخليهم عنه. ويستند ابن درّاج في هذا كله على رصيد عريض من العلاقات الاجتماعية التي مرّت به، عبر مراحل حياته السابقة والمتباينة، "والتي تتمثل بمرحلة الهدوء والاستقرار في ظل العامريين (382– 399هـ)، ومرحلة التشرد والضياع بعد الفتنة، وتمتد (399–408)، ومرحلة الأمن والاستقرار في ظل التجيبيين (408–419)، ومرحلة الضياع والتغرّب الجديد (419–421)" (ابن درّاج، 1968).

فعبر مراحل حياته السابقة، عرف ابن درّاج معنى الصحبة والتعاون، فطبعت حياته بلون الحاجة للآخرين، لإيمانه العميق بأن "الخير أصيل في الفطرة البشرية؛ فقاعدة الخير في الإنسان

قوية متينة" (الهاشمي، 1986). لعل هذا ما جعله يستشعر الرابطة المتينة بين أبناء مجتمعه... هذا الإحساس نابعٌ من إيمانه بالقدر الذي شكّل عنده رياضة لنفسه، فحفظ توازنه، وضبط نفسه في حياته، وحاول التخلّص من اليأس، ليكون قوة فاعلة متجددة.

فها هو ذا يرتحل ويسافر. ومن السفرات التي قام بها الشاعر بصحبة أسرته، بحثاً عمن يفيء عليهم ببسطة من المال، تلك الرحلة البحرية التي صوّرها في إحدى قصائده، يقول فيها (ابن درّاج، 1968):

إليك شحنا الفلك تهوي كأنها

وقد ذُعرت عن مغرب الشمس غربان

حيث وصف ابن درّاج مشاعره وأحاسيسه تجاه زوجته وأولاده الذين كانوا معه في رحلته، وسكنوا فؤاده. وقد صوّر حالهم وهم يبكون بدموع غزيرة، تمدّ البحر بالماء إذا غاض ماؤه، ويزفرون زفرات قوية، تدفع السفن إذا هدأت الريح، كما أنهم رأوا الموت يحيط بهم من كل الجهات، فتخيلوا البحر قبراً لهم (الحلوة، 1995).

أصرّ ابن دراج على الإلحاح على تصوير معاناته الجسدية والنفسية، وذِكْرِ سفراته التي جسّد فيها تلك المعاناة، حتى حينما كلّفه المنصور بن أبي عامر بمعارضة أبي نواس في رائيته (أجارة بيتَينا أبوك غيور)– أشرنا سابقاً إلى مناسبة هذه القصيدة– نسجَ ابن دراج قصيدةً مطلعها (ابن درّاج، 1968):

دعي عزمات المستضام تسير

فتنجد في عرض الفلا وتغور

بدا فيها يعاني، حقيقةً لا صناعةً، الأهوالَ والمتاعب التي تجشمها خلال رحلته عبر الصحراء، كأنه لا يستطيع أبدًا أن ينفك من حقيقة واقعه المعيش، كأني بالشاعر يتناسى أنه يصطنع (قصيدة معارضة)؛ لذا نراه راح يصوّر فزعه وقلقه على أولاده، ويتحدث عن زوجته التي تحاول أن تثنيه عن عزمه وتقلل من اندفاعه، مع طفلها الصغير الذي يناشده ألاّ يرحل بندائه المبغوم ونظراته الحزينة (دعدور، 1994)، لكن الشاعر لم يستسلم للمشهد العاطفي؛ فضبط انفعاله وأصرّ على الرحيل، وكتم في قلبه الحب والحنان، وانطلق باحثاً عن القوت والأمان. وهذا ما حاول أن يقنع به زوجته. فإرادة الحياة تتطلب منه أن يتحدّى، وأن يتحرّك ليصل صوب الأحسن والأمثل. لم يستجب الشاعر لنداء صغيره، ولا لطفلته الصغيرة المتعلقة به؛ لأنه يعلم أن تكوينهم الجسمي بالحليب لا يغني عنه غذاءٌ آخر، كما أن أسرته كبيرة ومسؤوليته أكبر، وعليه أن يضرب في مناكب الأرض، على الرغم من ثقل الحمل عليه (ابن درّاج، 1968):

1- فما جهدوا فُلكاً كما جهدوا يدي

ولا أنقضوا رحلاً كما أنقضوا ظهري

2- أبني لا تذهب بنفسك حسرة

عن غول رحلي منجدا أو مغورا

فلئن تركت الليل فوقي داجيا

فلقد لقيت الصبح بعدك أزهرا

ولقد وردت مياه مأرب حفلا

وأسمت خيلي وسط جنة عبقرا

3- أبني لاح الفجر إذ بلغ الدجى

أمدا فسل الهم إن لم تشفه

وتركت غول البر معدم أنسه

مني وهول البحر فاقد إلفه

هذا على خفق الشراع وقلسه

حرم وذاك على البعير وخفّه

إنّ هذا التكرارَ للثنائيات الضدية– (منجد/ مغور، الليل داجٍ/ الصبح أزهر، مياه مأرب/ جنة عبقر، غول البر/ هول البحر)، خاصة أسماء الزمان والمكان والتداعيات التي تثيرها– يقوّي المعنى ويبعث الأحزان والشجون، "وكل ذلك يقوّي الصورة، ويزيد في تأثير المعنى العام، ويضفي لوناً عاطفياً على جوّ القصيدة" (الطيب، 1970) الحزين المحمّل بالحسّ الأسري العارم الذي يذكيه الشاعر، حين يركّز المعنى في أجواء هذه الثنائيات والتقابلات لأسماء الزمان والمكان خاصة، فيصير محتوماً عليها أن تقترن بلون عاطفي خاص، والشاعر إنما يكثر من ترديد أسماء الزمان والمكان ليعطي الصورة حقها كاملا، ويفيض فيها بما أريدت له (الطيب، 1970)، فضلاً عن جماليات فنية تكمن في المزاوجة بين الألفاظ، تتداعى لها أوزان القصيدة وأجواؤها الأسرية الحزينة، وهي كلها تراكيب يقرنها الشاعر في أذهاننا وأوهامنا بتجليات روحية ونفسية، أكثر من امتدادها الحقيقي في الحيز الزماني أو الجغرافي.

مَنْ يطالع ديوان ابن درّاج يلحظ كثيراً من الأبيات التي تمثّل مشاهدَ حواريةً بين الشاعر وزوجته التي تحاول أن تثنيه عن الرحيل، وتصرفه عن أهدافه بالحيلة، لكنه لا يستجيب لرجائها؛ فيشرع في شرح مذهبه في الحياة، ويبين رأيه في الخروج طلباً للرزق (ابن درّاج، 1968):

لا تخدعي بدموع عينك في الورى

قلبا يعز عليه أن تتذللي

لا تخذلي بالعجز عزمي بعدما

شافهت أعجاز النجوم الأفل

يطلب الشاعر من زوجته أن تكون على درجة أكثر من الوعي، وتستشعر المسؤولية تجاه الأسرة؛ "فالأب والأم هما

المَحضَن الطبيعي الذي يرعى الأطفال ويكون مسؤولاً عنهم ويحميهم" (الهاشمي، 1986). لذا يحاول إقناعها بأن تدفعه لينطلق في معركة الحياة، لأن الخير والرزق لا يأتيان إلا بالرحيل والسعي في مناكب الأرض (ابن درّاج، 1968):

كفي شؤونك ساعة فتأملي
في ليلها بشرى الصباح المقبل
وتنجزي وعد المشارق وانظري
واستخبري زهر الكواكب واسألي
فلعل غايات الدجى أن تنتهي
وعسى لغايات الأسى أن تنجلي
لا تخدعي بدموع عينك في الورى
قلبا يعز عليه أن تتذللي
وتجملي لشجا النوى لا تمكني
أيدي الصبابة من عنان تجملي
لا تخذلي بالعجز عزمي بعدما
شافهت أعجاز النجوم الأفل

واضح أن الشاعر لم يصغِ إلى صوت زوجته التي تحاول أن تثنيه عن الرحيل وتصرفه عن أهدافه بالحيلة، ولا يستجيب لرجائها. ويبدو أن نظرات طفله الحزينة التي عبّرت عن المشاركة بالأحزان كانت محركاً لوالده، بعد أن أدرك بإحساسه النفسي رسالة الطفل الصغير الهاجع في مهده، هذا المهد الذي يعدّ رمزاً للراحة والأمان، لكن الطفل لم يكن يعرف الراحة على الرغم من أنه يهجع فيه؛ لأنه أدرك بغريزته وفطرته واقع أسرته المرير، فاستجاب لذلك الواقع، وعبّر عن رفضه له بنظراته الحزينة. لذا استدعى هذا الموقف من الأب ألا يقف موقف الجامد المستكين، بل يستجيب لنظرات الطفل، وبكاء الطفلة، ويرتحل في سبيل تحقيق الضمانات الحياتية لأسرته؛ من طعام ومال ومسكن وأمن، حتى لا يقع أبناؤه ضحية تخاذله ويأسه وضعفه. فكان هذا كله يدفعه لأن يكون دائماً في حالة توثّب وترحال، فلا يمرّ عليه حول دون رحيل، أو وداع، أو دموع (ابن درّاج، 1968):

1–فهل حول يحول بلا رحيل
ولو شيئا نراه في المنام

2–قالت وقد مزج الوداع مدامعا
بمدامع وترائبا بترائب
أتفرق حتى بمنزل غربة
كم نحن للأيام نهبة ناهب!
في كل يوم منتوى متباعد
يرمي حشاشة شملنا المتقارب
وثنت تذكر مقربات سفائن
عذنا بها من مقفرات سباسب
أيام تؤنسنا فلاً وسواحل
عن آنسات مقاصر وملاعب
نَعَبَ الغراب بها فطار بأهلها
سربا على مثل الغراب الناعب
خرق الجناح إلى الرياح مضلل
بشمائل لعبت به وجنائب
يهوي بذي طمرين مزق لبسها
أيدي لواهف للنفوس نوادب
في غول ذي لجج لبسن دياجيا
ترك الحياة لنا كأمس الذاهب
قاسيتهن غواربا كغياهب
وسريتهن غياهبا كغوارب

وحريٌّ بالذكر هنا الإشارة إلى أن مثل هذا الحديث الإنساني بين الزوج وزوجته وأبنائه والذي يتخذ أحياناً، صورة الوداع في قصائده قد نال إعجاب النقاد قديماً وحديثاً؛ فهذا حازم القرطاجني يقول: "أبدع ابن درّاج في ذكره وداع امرأته وما ظهر من الشجو في ألحاظ بنيه الصغير لما أبصر من حالهما، فتبين ذلك في عينيه" (القرطاجني، 1966). ويرى الدكتور شوقي ضيف "أن صورة الوداع دليل على شاعرية الشاعر، فهي قطعة تفيض بالعواطف والشعور" (ضيف، 1989).

يدعم ابن درّاج آراءه بالحجج والبراهين والإقناع في رسمه المشهد العاطفي المليء بالإثارة والأحاسيس المرهفة، فينقل القارئ أو السامع إلى أجواء نفسية رحبة تجعله يشعر بألمه (الياسين، 1992)؛ لأنها تمسّ شغاف القلوب، وهي تقدم النموذج الإنساني الرائع. فما من شكّ في أن هذا التسجيل الصادق لحبه لأبنائه النابع من الذات وشعورها بالمسؤولية، وهذا الحسّ الأسري جعله يكون منفرداً بدلالات روحية خاصة، وأحاسيس إنسانية فريدة، وأعطاه لوناً خاصاً مائزاً، فصار تجربةً فريدةً للشاعر، ميزته بإحساسه العارم لأسرته، وعواطفه الفوّارة في حبّ أولاده عن غيره من الشعراء.

الشعور بالغربة والحنين

بعد أن انفجرت الفتنة، وتفككت الروابط الاجتماعية (الشوابكة، 1989)، وأحسّ ابن درّاج بخفوت قيمة التعاون بين الناس، شعر كأن المجتمع كله قد تخلّى عنه. لعل ظروف الفتنة وقسوة الحياة، فرضت على الناس شيئاً من ذلك. لذا قرر ابن درّاج اعتزال هذا المجتمع المتفكك، والرحيل عنه بحثاً عن أنيس يساعده ويساعد أولاده خارج وطنه، بعد أن أنشبت الحياة

أظفارها في وجوههم؛ فطاف ابن درّاج في الأرض يطرق أبواب الأمراء والحكام وغيرهم، وقد امتلأت جوانحه وشعوره بالخواء النفسي والضياع الذي ما انفك ينخرّ في أعماقه، فأخذ يشكو لهم شأوه، وسخط الدهر عليه "محاكياً بذلك المتنبي" (ضيف، 1989). فكم تمنّى أن تبتعد عنه نوب الدهر التي وضعته في فلك دوّار! (ابن درّاج، 1968):

ويكتب فوق جبيني ووجهي

إلى نوب الدهر حيدي حياد

لقد دفعته إرادته القوية إلى البحث والتفكير في تغيير حاله وحال أبنائه، وفرضت عليه فلسفته في الحياة الرحيل والضرب في أرجاء الأرض، حتى لو استحوذ ذلك آماد حياته كاملة؛ فهمومه وهمومهم تجبره على ذلك وأكثر. فهو يرى: أنه هو نفسه السبب في وجود أبنائه في هذه الحياة، وعليه وحدّه أن يتحمّل عناء تربيتهم، كما عليه أن يتحمّل جريرة كل ما يعتورهم من عذابات وآلام. ولا شكّ أن هذا الإحساس يضاعف عذاب الأب، ويجلّي شقاءه بأبنائه. وكأن فلسفة ابن درّاج في ذلك تنظر إلى فلسفة أبي العلاء المعرّي من زاوية ما، ومفادها أن الأبناء جناية الآباء على أبنائهم، لذا فهو لم يتزوج (المعرّي)، ولم ينجب أبناءً كي لا يتحمّل جريرتهم، كما يظهر ذلك من قولته المشهورة التي أوصى أن تُكتب على قبره: (هذا جناه أبي عليّ وما جنيتُ على أحدْ).

عاش ابن درّاج حياة يشوبها التوجّس والقلق؛ فهو منذ عهد المنصور لم يكن مطمئناً إلى ثبوت منزلته في كنفه. على الرغم من أنه عاش حياة هادئة مستقرة مع أسرته في ظله، فإن قصائده في مدحه، وفي مدح العامريين بشكل عام لم تخلُ من الإيحاء بهذا الشعور؛ فهو ما انفك يذكر مفارقة الزوجة والأبناء (عباس، 1962).

لقد سكن ابنُ درّاج، إثرَ تنقله وترحاله، البحرَ (الحلوة، 1995) والقفار والبراري، بل إن هذه الأماكن كانت سجناً له ولهم، كما في قوله (ابن درّاج، 1968):

- وإن سجن حواه فكم حواهم

سجون الفلك والقفر القواء

- فإن أقوت مغاني العز منهم

فكم عمرت بهم بيد خلاء

يجوب الشاعر الأرض مع أولاده أملاً بأن يأنس بهم، ويجد المحبة والطمأنينة بينهم في مكان آمن حيث القوت والمال، والوطن الآمن الذي يجمعهم.

هذا هو ابن درّاج، إذاً، لا يفارق الحديث عن أبنائه، لأنه يرى في قربهم ألفة، وفي صلتهم حياة، وفي محادثتهم أنساً وراحة؛ فقد شكّلوا وجوداً لا يبرح ذاكرته، وكينونة فكرية فوّارة بالمشاعر الإنسانية؛ فكم تمنّى أن يجمعهم الوطن بحياة سعيدة! فأرض الوطن صوت من أصوات الارتباط التي تذكّره بأولاده حينما يكون بعيداً عنهم فيحنّ إليهم، لأن قلبه يظلّ متعلقاً بقلوبهم، وإنْ ابتعد عنهم جسدياً (ابن درّاج، 1968):

وما كان ذاك البين بين أحبة

ولكن قلوب فارقتهن أبدان

فالشاعر يظلّ متصلاً بهم روحياً، فهم قد سكنوا قلبه، وشغلوا تفكيره وفكره، فعاشوا بداخله؛ فانبعث حنينه إليهم من منابع صادقة تجيش بأحاسيس نبيلة تعبّر عن واقعهم وغربته عنهم. وهذا الحنين، بدوره، نابعٌ من إحساسه بالانفصال والبُعد. كما يتجلّى ذلك في صور عناق الطفلة لوالدها الذي ابتعد عنها، والذي شبهه الشاعر "بلحظة انشعاب الأغصان عن أصولها بسبب العواصف الشديدة" (الياسين، 1992)، (وشعبت أفلاذ الفؤاد ولم أكد فحذوت من حذو الثريا منظرا) (ابن درّاج، 1968). لكنه رغم انشعاب أفلاذ قلبه عنه ظلّ متصلاً بهم روحياً، يحنّ إلى لقائهم في مكان ما يجمعهم مدى الحياة. "فالحنين إذاً، يرتبط بظاهرة الاغتراب النفسي التي يعيشها الإنسان، وهو يمرّ بتجربة الانفصال عن السلوك المعتاد" (القيسي، 1987). هذا ما جعل الشاعر يشعر بالعزلة عن أبنائه ووطنه، لأنه لم يتعوّد، ولم يستطع التعوّد على ألفة بُعدِه عن أبنائه؛ فالجذور التي تعلقّه بهم هي جذور فطرية ضاربة في أعماق ذاته.

إذًا، فقد اتضح أن ابن درّاج كان ضحية من ضحايا نكبة الأندلس وقرطبة خاصة، إذ انعكست آثار هذه النكبة على أحواله النفسية والمادية والاجتماعية والعائلية، تماماً كما انعكست هذه الآثار المدمرة على قرطبة نفسها، وطالت كل مجالات الحياة فيها. فانعكس ذلك كله على شاعرية ابن درّاج؛ من هنا نراه في قصائده بين الاستبشار والخيبة، بين شكوى الحال والتكفف الضارع، بين تصوير حال أطفاله وزوجته وحال الممدوحين. وقد سخرت الأيام سخرية مريرة به (عباس، 1962)، وتقاذفته رياح التشرّد والفقر والقهر في أصقاع الدنيا، فانكسر عنفوان نفسه، وأطبقت على صدره وطأة هذا الواقع المعيش. ومن هذا المعين الدامي كان يفيض شعره، وتتجلّى شاعريته، وتتوضّح صورة أبنائه وزوجته مغلفةً بهالةٍ من المشاعر الإنسانية الآسرة، وتتراءى قسمات مدينته بصورتها الحزينة المفجوعة بأهلها الذين أصبحوا نهباً للموت والتقتيل، ونسائها الثكلى المتشحات بثياب الحداد والأسى، وحرائرها المستباحات الأعراض، بعيونهن الراعشة المبلولة الأطراف. وما أسرته وزوجته إلا واحدة من هذه الأسر المفجوعة، وما زوجته إلا واحدة من هذه النساء الأندلسيات بعيونهن الراعشة المبلولة

الأطراف (ابن درّاج، 1968):

1-ومن دوننا آنساتُ الديار
نِهَابَ الحمى مُوحِشاتِ الطلول

2-مغاني السرور لبسن الحدادَ
على لابساتِ ثياب الذهول

خطيبات خطب النوى والمهور
مَهارى عليها رحالُ الرحيل

فمن حرةٍ جُليت بالجلاء
وعذراء نصَّت بنصّ الزميل

ولا حَلْيُ إلا جُمانُ الدموع
تسيل على كل خَدٍّ أسيل

فبدلن من بعد خفض النعيم
بشق الحزون ووعث السهول

تصوّر هذه الأبيات حال المرأة عامة في قرطبة، وما أصابها من موتٍ وفَقدٍ وثكلٍ. والثكل "هنا حالة تصيب المرأة، فالفقد والثكل كلاهما يسبب الحزن والألم. وكلا اللفظتين تعمل على فقد الصلة بإشراقات الحياة. والثكل يرادف اليتم وهوان الحال، والسقوط للمدينة يعني استباحة الحمى ونشر ما هو طيّ السرّ والكتمان" (خريوش، 1999).

ومن هنا فقد استُبيحت الأعراضُ، وهُتكت المحرمات، وفُقد الأبناء والأزواج، فابتلت العيون بالدموع، وتفطّرت القلوب، فلم يعُد في قرطبة متنفسٌ لسعادة أو فرح أو حب. وكأن الشاعر يرمي للإيحاء بفناء الروابط الإنسانية المنتجة، سيما الروابط الزوجية بتصويره لهذه الصورة للمرأة الثكلى، فلا حياة ولا استمرار للجنس البشري إلا بوجود الرجل إلى جانب المرأة، وتظل المرأة بفَقْدِ الرجل شجرة غير مثمرة، وكأن الشاعر يريد أن يقول: إن سقوط قرطبة أدى – أو سيؤدي – إلى فناء الوجود الإنساني فيها إذا استمرت هذه الأحوال.

وفوق ذلك كله إيجاد جيل من النساء المسلمات دون أزواج أو أبناء، فيستبيح الكفرُ أعراضَهن ويستولدهن جيلاً من ملة الكفر، يحلّ محلّ الجيل المسلم المُباد. ولعل ذلك كله يفسِّر إلحاح الشاعر على تصوير المرأة، والمرأة الثكلى بهذا الشكل الفاجع.

الخاتمة

- غيّرت الفتنة الكبرى التي التهمت الأندلس حياة الشاعر وأسرته؛ فبعد سعة العيش والنعيم، ألقت بهم في مهاوي الفقر والتشرّد والترحال عبر البحار والقفار، بحثاً عن الأمن والقوت.
- سخّر ابن درّاج قسماً كبيراً من شعره لتصوير واقعه، وأحوال أسرته وزوجته وأبنائه الذين تعلّق بهم تعلّقاً شديداً؛ حيث استغرق حديثه عنهم جانباً عظيماً من شعره، فصوّر عاطفة الأبوة نحوهم، ووصف ما حلّ بأسرته التي أهلكتها الملمات والشدائد القاسية. وأتقن وصف حال أولاده الصغار، ونعتهم بصفات تفيض بالمعاني العاطفية الجيّاشة التي لا تفتأ تؤثّر في السامع، وتحرّض أحاسيسه. من هذا المعين الطازج كان ينبجس شعر ابن درّاج، وتتجلّى شاعريته، وتتوضّح صورة أبنائه وزوجته مغلفةً بهالةٍ من المشاعر الإنسانية الآسرة. من هذا المعترك الفوّار بالمشاعر والأحاسيس المترامية بين الرجاء واليأس رسم ابن درّاج صوراً شعريةً وأخيلةً إيحائيةً تشكّل كينونات جمالية ودلالية تنضح بمزيج متوازن من الانفعالات الإيجابية والسلبية.
- على الرغم من الظروف الخاصة التي اعترت الشاعر، وضاعفت إحساسه الفاجع بحدّة المفارقة والتحوّل من حالٍ إلى حالٍ، إلا إنه لم يخسر وعيه، بل ظلّ قادراً على استدعاء الرموز التراثية، واستلهام المواقف المختلفة، والكشف عن مخابئها، وإعادة توظيفها في تجربته المعيشة؛ كما نلحظ في استدعائه لقصة أهل سدّ مأرب في القرآن الكريم، وتمثّله لبعض معاني المتنبي والمعرّي والحطيئة ومجنون ليلى، وغيرهم.
- تجلّى الحسّ الإيماني في شعر ابن درّاج، مما أعانه على تحمّل المحن بعزيمة وصبر، وإيمان بأنّ الأزمة مهما اشتدت، فلابدّ أن تنفرج، لذا فقد ظلّ الشاعر يعيش حالة وعي، ويرى نفسه متصلاً بالحوط الإلهي الذي يرعاه وأسرته.
- لم يفصل ابن درّاج قضيته الخاصة عن قضية المجتمع الأندلسي وما أصابه من مآسٍ، من هنا نراه، كثيراً ما يبكي زوجته وأسرته من خلال بكائه المجتمع الأندلسي، والنساء الأندلسيات عامة، المفجوعات بأبنائهن وأزواجهن وأهلهن الذين أصبحوا نهباً للموت والتقتيل والتشريد. وما أسرته إلا واحدة من هذه الأسر المفجوعة، وما زوجته إلا واحدة من هذه النساء الأندلسيات المفجوعات بعيونهن الراعشة المبلولة الأطراف.
- أعجب كثير من الدارسين بحسّه الأسري الرائع؛ مثل: حازم القرطاجني وإحسان عباس وشوقي ضيف وإبراهيم الياسين، وغيرهم، ورأوا أن إحساسه العارم بالأسرة ظاهرة مائزة انفرد بها ابن درّاج، ولا يشاركه فيها شاعر عربي آخر.

الهوامش

(1) الفتنة البربرية (11 ربيع الأول 40 هـ)، تزعّم سليمان (المستعين)– وهو أُموي– البرابرة، وكانوا قد تحالفوا مع النصارى، وقصد سليمان أن ينتزع الخلافة من المهدي، واجتمع البرابرة معه لمحاربة قرطبة، اندفع أهل قرطبة نحو البربر، فاستدرجهم هؤلاء وأوسعوهم تقتيلاً وتنكيلاً، فأبادوا كثيراً من أهل قرطبة، وهرب المهدي إلى طليطلة، واستعان بالفرنج، لكن سليمان كان قد استولى على قرطبة، وأقام فيها سبع سنوات كانت كلها سنوات بلاء وقهر وعذاب لأهل قرطبة، وخراب وتدمير للمدينة طال كل مجالات الحياة في قرطبة. (الشنتريني، 1979).

(2) المتأمل في طوق الحمامة يلحظ أن ابن حزم قد قال نثراً وشعراً كثيراً في قرطبة، انظر على سبيل المثال ما قاله نثراً في قرطبة: ابن حزم، طوق الحمامة، (تحقيق، حسن كامل السيرفي، القاهرة، د.ت): 94. ومن شعره في قرطبة قوله:

سلامٌ على دارٍ رحلنا وغُودِرَت
خلاء من الأهلين موحشة قفراً
تراها كأنْ لم تغنَ بالأمس بلقعاً
ولا عمرَتْ من أهلها قبلنا دَهْرا
فيا دار لم يُقفركِ منّا اختيارُنا
ولو أننا نسْطِيعُ كنتِ لنا قبرا

(3) كانت نكبة قرطبة بالنسبة إلى ابن شهيد حادثاً جللاً، لأنها هوت بالمجد العامري، وقضت على الأيام السعيدة في ظل العامريين، وله في رثائها قصيدة مشهورة، تفيض بمعاني الألم والتحسّر على الماضي السعيد، والتفجّع على الحاضر الأليم، تلفعّها أنغام الأسى والحزن وتصدح بإيحاءات الموت والفناء الذي أسدل ستائره على مجد قرطبة وماضيها السعيد:

ما في الطلول من الأحبة مُخبرُ
فمن الذي عن حالها نستخبرُ؟
لا تسألنَّ سوى الفراق فإنه
يُنبيك عنهم أنجدوا أم أغوروا
جار الزمان عليهمُ فتفرقوا
في كل ناحية وباد الأكثرُ
جرت الخطوب على محلِّ ديارهم
وعليهم فتغيرت وتغيروا
يا جنةً عصفت بها وبأهلها
ريح النوى فتدمرت وتدمروا
يا منزلاً نزلت به وبأهله
طير النوى فتغيروا وتنكروا.

انظر: ديوان ابن شهيد، تحقيق: يعقوب زكي: 109 – 110.

(4) نال ابن زيدون هو الآخر حظه من العذاب والتشرد بسقوط قرطبة. وقد ارتبطت المدينة لديه بذكرياته الوردية مع حبيبته (ولاّدة) التي قضى معها أجمل لحظات حبه في أحضان الطبيعة الساحرة في قرطبة وغرتها الزهراء:

إنّي ذكرتك بالزهراء مشتاقاً
والأفق طلقٌ ومرأى الأرض قد راقا.

فالشاعر يجعل من هذا المنظر الطبيعي الرائع في أحضان الزهراء صورة للماضي السعيد في ظل المحبوبة ولاّدة محققاً المفارقة الحادة بين ذاك الماضي والحاضر الذي طوى كل جميل، وأحال الجنان إلى جحيم، ففقدت الحياة رونقها بفقد الحبيبة وضياع مدينتها، ولذلك راح يتحسّر على ضياع قرطبة، وذكرياته الجميلة فيها (ابن زيدون، 1990):

أقرطبة الغراء هل فيك مطمع؟
وهل كبدٌ حرّى لبينكِ تُقنعُ؟
وهل لياليك الحميدة مرجع؟
إذْ الحسنُ مرأى فيكِ واللهو مسمع
وإذْ كنف الدنيا لديك مُوطَّأُ
أليس عجيباً أن تشطَّ النَّدى بكِ
فأحيا كأن لم أنس نفح جنابكِ
ولم يلتئم شعبي خلال شعابكِ
ولم يكُ خَلقي بدؤه من ترابكِ
ولم يكتنفْني من نواحيك منشأُ.

(5) المرحلة الأولى (382–399هـ/992–1008م) في ظل المنصور العامري، وابنيه: عبد الملك وعبد الرحمن. "والذي يقرأ شعر ابن دراج في القائد العامري لا يملك تفكيره من أن يثب إلى مدائح المتنبي لسيف الدولة، فهو مدح لا يقوم فقط على الطمع والرغبة... وإنما المصدر الأول فيه هو شعور قوي من الإعجاب بشخصية الممدوح". انظر: الديوان، المقدمة، ص48.

المرحلة الثانية، مرحلة الفتنة سنة 399هـ/1008م، وهي المرحلة التي قضاها في بلاط التجيبيين، ملوك سرقسطة، حيث أقام حوالي ثمانية أعوام كانت أعصب فترة مرت على حياة ابن دراج من التغرّب والتشرّد. انظر: الديوان، المقدمة، ص 71–72.

المصادر والمراجع

ابن الخطيب، ل. (1973) الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: أحمد عبد الله عنان، القاهرة: مكتبة الخانجي، ج 2، ص 56.

ابن حزم، (د.ت) طوق الحمامة، تحقيق، حسن كامل السيرفي، القاهرة، ص 94.

ابن درّاج، (1968) ديوان ابن درّاج، تحقيق: محمود علي مكّي، ط 2، المكتب الإسلامي، ص 3–457.

ابن زيدون، (1990) ديوان ابن زيدون، تحقيق: حنا فاخوري، بيروت: المكتبة الأدبية، ص 398، 480، 481.
الجرجاني، ع. (1969) دلائل الإعجاز، القاهرة، الناشر: عبد المنعم خفاجي، ص 93.
الحلوة، م. (1995) شعر البحر في الأندلس، ط 1، ص 103.
خريوش، ح. (1999) "بنية التراث الروحي والاجتماعي في مرثية طليطلة"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، عدد 28، خريف، ص 84، 108.
دعدور، أ. (1994)، الصورة الفنية في شعر ابن درّاج القسطلي، مكتبة النهضة، ص 121.
الرازي، ف. (1985) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ط 1، تحقيق: بكري شيخ أمين ، بيروت: دار العلم للملايين، ص 156.
سلامة، ع. (1989)، الأدب العربي في الأندلس، ط 1، الدار العربية للموسوعات، ص 275.
الشنتريني، ع. (1979) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، ص9-10، 60-64.
الشوابكة، م. (1989)، الغربة والاغتراب دراسة في شعر ابن درّاج القسطلي، الأردن، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد (4)، العدد (2)، ص 142-160.
شيخة، ج. (1994)، الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي، ص 8-9.
ضيف، ش. (1989) عصر الدول والإمارات في الأندلس، مصر: دار المعارف، ص 90، 193، 429.
الطيب، ع. (1970) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها؛ ط 2، ج 2، بيروت: دار الفكر، ص 523-524.
عباس، إ. (1962) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، ط 6، ص 241-358.
عباس، إ. (1978) دراسات في الأدب الأندلسي، ط 2، ليبيا: الدار العربية للكتاب، ص 10.
عمايرة، خ. (1984)، في نحو اللغة وتراكيبها- منهج وتطبيق، ط 1، جدة: عالم المعرفة، ص 107، 173.
عيد، ر. (د.ت)، القول الشعري منظورات معاصرة، الإسكندرية: منشأة المعارف، ص 31.
القرطاجني، ح. (1966)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب، تونس: دار الكتب الشرقية، ص 141.
القيرواني، (1981)، العمدة في صناعة الشعر ونقده، ط 5، ج 2، تحقيق محي عبد الحميد، بيروت: دار الجيل، ص 135.
القيسي، ف. (1989)، أدب الرسائل في الأندلس، ط 1، دار البشير، ص19، 166.
القيسي، ن. (1987)، محاولات في دراسة اجتماع الأدب، دار الشؤون الثقافية، ص83.
الهاشمي، م. (1986)، الإنسان في الأدب الإسلامي، ص521-523.
هيكل، أ. (1980)، دراسات أدبية، ط 1، القاهرة، ط 1: دار المعارف، ص543.
اليازجي، ك. (1992)، جذور فلسفية في الشعر العربي القديم، ط 1، بيروت: دار الجيل، ص64.
الياسين، إ. (1992)، شعر ابن درّاج القسطلي دراسة وتحليل، رسالة ماجستير، الأردن، جامعة اليرموك، ص21-154.

The Sense of Family and its Impact on the Poetics of Ibn Darraj

Fathi Abu Morad*

ABSTRACT

The present study tries to understand the poetry of Ibn Darraj and tastes it in special circumstances surrounding the poet and his family which were represented in the flames of the Great turbulence which affected the cities of Andalusia. Ibn Darraj and his family were the victim of this disorder, that threw him and his family between canines of poverty and homelessness. His overwhelming love and fear for his children and wife embodied in his attractive poetry and images.

Keywords: sense of family, poetic, turbulence, leave, heritage, complimenting.

* Al Hoson University College, Al Balq'a Applied University, Jordan. Received on 3/2/2015 and Accepted for Publication on 24/5/2015.